أسئلة مهمة
حول الدعوة والتربية والمرأة والحضارة (*)

● تتعرض الأمة الإسلامية للعديد من هجمات أعدائها منذ القديم وحتى وقتنا هذا والذى اتخذ فيه الهجوم أشكالاً مختلفة منها المباشر ومنها غير ذلك .. والسؤال هنا : هل أعدَّ الإسلام أبناءه لمواجهة مثل هذا الأمر ؟

وما مدى التزام هؤلاء الأبناء بتعاليم هذا الدين ؟

الإعداد العقلى والنفسى للإنسان المسلم

● ● أجل أعدَّ الإسلام أبناءه عقلياً ونفسياً لهذا الأمر ، حين علَّمهم أن أعداءهم لن يغفلوا عنهم .. ولن يغمدوا يوماً أسلحتهم التى شهروها من قبل فى وجوههم .

وحسب المسلمين أن يقرءوا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (١) .. قد يغيرون أسلحة القتال والغزو ، ولكن المعركة باقية ما بقى فى الدنيا حق وباطل .

كما علَّمنا الله تعالى فى كتابه أنهم - وإن اختلفوا فيما بينهم - متفقون علينا وولاؤهم لن يكون لنا . ولهذا كان علينا أن نتجمع على حقنا فى مواجهة تجمعهم على باطلهم وإلا كانت الفتنة والفساد الكبير . وفى هذا يقول القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢) .

(*) أعدَّت الأسئلة الأخت فوزية صعب وبعثت بها إلى . أ . د . القرضاوى .. فرد عليها كتابة ، ونشرتها جريدة « اليوم » بالمملكة العربية السعودية فى عدة حلقات .

(١) البقرة : ٢١٧ (٢) الأنفال : ٧٣

أول ما يجب على المسلمين إزاء هذا التكتل الغازى أن ينسوا كل خلافاتهم ، ويقفوا صفاً واحداً فى معركة وجودهم وبقائهم . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١) .

ومما يؤسف له أن المسلمين لم يعوا هذا التوجيه الإلهى ، فغفلوا وأعداؤهم مستيقظون ، وتفرّقوا وأعداؤهم مجتمعون ، وقعدوا وغيرهم يُقاتِلون . وما نهضوا به من عمل لم يكونوا فيه على مستوى دينهم ، ولا مستوى عصرهم ، ولا مستوى تخطيط أعدائهم .. أصبحنا نسمع : هذا من تخطيط الصهيونية أو الصليبية أو الشيوعية ، كأن هذا عذر لنا ، فلماذا لا نخطط لأنفسنا ، بدل أن ننفذ بأيدينا مخطط أعدائنا ؟!

لقد وصف الله أصحاب نبيه بأنهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) ، ونحن أشداء علىٰ أنفسنا ، رحماء بغيرنا !! أشد الحروب ضراوة هى التى تقع بين بعضا وبعض . كذلك وصف الله اليهود قديماً بقوله : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (٣) .. وللأسف هذا هو وضعنا اليوم !

وإن كان هناك أمل فهو فى أن تسد الصحوة الإسلامية المعاصرة النقص ، وتتلافى القصور والتقصير إذا قُدِّر لمسيرتها أن تستمر وتسلك سبيل القصد والرشاد ، ومراعاة سنن الله فى الأنفس والآفاق .

* *

أزمة مسلمين وليس أزمة إسلام

● يقال إننا نعيش فى عصر أزمة مسلمين وليس أزمة إسلام .. ما مدى صحة هذا القول ؟

---

(١) الصف : ٤ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) الحشر : ١٤

● ● هذا صحيح فالإسلام نفسه محفوظ فى كتاب اللّه ، وسُنّة رسوله ﷺ ، واللّه تعالى قد تكفّل بحفظ كتابه بنفسه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، وهذا يتضمن حفظ السُنّة أيضاً كما قال الإمام الشاطبى لأنها المبيِّنة له وحفظ المبيَّن يشمل فى ضمنه حفظ المبيِّن ..

ولكن المهم هنا المسلمون الذين يرى الناس فيهم الإسلام عقيدة وعبادة وخُلُقاً وسلوكاً . كأصحاب رسول اللّه ﷺ ، الذين كان كل منهم قرآناً يسعى على قدمين .. فهل نجد هؤلاء اليوم ؟

صحيح أن المسلمين يبلغون اليوم - من حيث الكم والعدد - نحو ألف مليون من البَشر ، ولكنهم - إلا مَن رحم ربك - كما ورد فى حديث أبى داود : « كثرة كغُثاء السيل » ، وإنما شبهوا بالغُثاء ، لأنه كمٌ كبير يتسم بالخفة والسطحية ، وعدم التجانس ، وفقدان الهدف ! على خلاف ماء النهر الذى يتدفق فى مجرى معلوم ، ومسار مرسوم .

وهناك فَرْق بين المسلم الذى يحمله الإسلام ، والمسلم الذى يحمل الإسلام ، مسلمو اليوم يحملهم الإسلام عبئاً على ظهره . والمسلم المنشود هو الذى يحمل الإسلام فكرة واضحة فى رأسه ، وعقيدة راسخة فى قلبه ، وعبادة خالصة لربه ، وأخلاقاً متكاملة فى حياته .

* *

جيل النصر المنشود

● هل صحيح أن استرداد بيت المقدس لن يكون إلا بإعداد « جيل النصر » كما سميتموه فى بعض مقالاتكم ؟ . وكيف يمكن إعداد هذا الجيل ؟ وعلى مَن يقع العبء الأكبر فى إعداده ؟

---

(١) الحجر : ٩

● كتبتُ فى مجلة « الأمة » القَطرية فى عددين متتاليين عن « جيل النصر المنشود » الذى يُرجَى أن تتحقق على يديه الآمال وتستحيل الهزائم والنكسات إلى انتصارات ، والذى تتجسد فيه الصَحوة الإسلامية الرشيدة . وهو جيل لا يتكوّن فى يوم وليلة ، بل يحتاج إلى حضانة طويلة المدى ، وتربية عميقة الجذور ، حتى يستطيع أن يغلب اليأس بالأمل ، ويملأ الفراغ بالعمل ، وينتقل من الانفعال إلى الفعل ، ومن الارتجال إلى التخطيط ، ومن الغوغائية إلى العلمية ، ومن التشاحن إلى التعاون ، ومن الاستيراد إلى الأصالة .

وقد بيَّنتُ ما ينبغى أن يكون عليه هذا الجيل المرتقب من سمات وأوصاف وأخلاق ، تجعله أهلاً للمهمة المنشودة منه ، وقلتُ فى ختام مقالى الثانى : « هذا هو الجيل الذى ننشده ، وتنشده معنا الأمة كلها من چاكرتا إلى رباط الفتح ، وهو الذى نسعى جاهدين لتكوينه ، ونذيب حبَّات قلوبنا من أجله » .

« وهو الذى تعمل القُوَى العالمية والمحليّة المعادية للإسلام على إجهاضه قبل أن يُولد أو وأده بعد أن يُوجد . فإن أعياها هذا أو ذاك ، فتحاول تضليله عن الهدف الحقيقى بأهداف موهومة ، وشغله عن معركته الكبرى بمعارك جانبية تافهة ، وتعويقه عن السير بصدامات تفتعلها على الطريق ، وإلهائه عن ضرب العدو بضرب بعضهم ببعض ، وإغراقه فى دوَّامة من الجدل لا يخرج منها ... إلى غير ذلك من أسباب الفتنة وأساليب الكيد .

« هذا الجيل وتكوينه يجب أن يكون الشغل الأول للحركات الإسلامية المعاصرة كما يجب على الدعاة والمفكرين والفقهاء والمربين أن يتعاونوا على حُسن إعداده وتربيته تربية متكاملة : روحياً ، وجسمياً ، وعقلياً ، وأخلاقياً ، واجتماعياً وسياسياً ، ويعملوا على حمايته من نفسه أولاً حتى لا يتآكل من الداخل ، ثم حمايته من كيد الأعداء ، وجهل الأصدقاء ، إنه الجيل الذى ادخره اللّه ليحمل روح أبى بكر فى مقاومة الرِدَّة وحرب المرتدين ووصفه

اللّه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دينه فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّة عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

« إن هذا الجيل المنشود هو جيل النصر ، وهو الذى تُحرِّر على يديه فلسطين وأفغانستان وأريتريا ، وبخارى وسمرقند ، وكل أرض دنَّسها الطواغيت والفُجَّار .

« هو الجيل الذى ترتفع به راية اللّه فى أرض اللّه ، ويسود به دين الخالق دنيا الخلق ، وتشرق به أنوار السماء على ظلمات الأرض . هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر اللّه ، وأن تسير فى ركْبِه الملائكة ، وأن يكون كل شئ فى الوجود مُسَّخراً لنُصرته ، حتى يقول الحجر واشجر : يا عبد اللّه ، يا مسلم ، هذا عدوك خلفى فتعالى فاقتله » .

* *

الإسلام والسياحة

● السياحة والاصطياف بالنسبة للعربى المسلم فى الدول المعادية للإسلام وما يتبعها من تبذير أموال المسلمين هناك حيث أثبتت الإحصائيات عن السياحة فى بريطانيا أن مجموع سُيَّاح إحدى الدول الخليجية فى العام الماضى (١٩٨٣) بلغ (٥٣٦٦٠) سائحاً أنفقوا حوالى (٦٢ر٦) مليون جنيه إسترلينى خلال فترة لم تتعد فى المعدل (١٧) يوماً للواحد .. ما رأى فضيلتكم فى أبعاد هذا العمل الذى يمثل خطورة كبيرة على الأمة الإسلامية فى الداخل والخارج ؟

● ● لا يُحرِّم الإسلام على المسلم السياحة ، والضرب فى الأرض ، بل لا يوجد دين عَنِىَ بذلك مثل الإسلام الذى شرع السفر لطلب العِلم ، والسفر لطلب الرزق ،

---

(١) المائدة : ٥٤

والسفر للعبادة كالحج والعُمرة ، والسفر للجهاد ، والسفر لغير ذلك من الأغراض المشروعة ومنها : الترويح عن النفس والتعرف على العالَم وما فيه من عجائب ومفارقات حتى قيل : السفر نصف العلم . ولا عجب أن شرع الإسلام من أجل ذلك جملة من الأحكام والرُخَص ، والآداب ، والأذكار التى تتعلق بسفر المسلم . كما جعل فى مصارف الزكاة متسعاً لمعونة مَن ينقطع فى سفره ، وإن كان ممن له مال فى بلده ، حتى لا يهلك فى الطريق بهلاك الراحلة أو انقطاع الزاد . وما أكثر ما تحدث الحكماء ، وتغنى الشعراء بالسفر وفوائده ، ومما حفظناه فى صبانا ما نُسِبَ إلى الإمام الشافعى :

ما فـــى المقام لذى عقل وذى أدب ... مـــن راحة ، فدع الأوطان واغترب

إنـــى رأيتُ وقـــوف الماء يُفســده ... إن سال طـاب وإن لم يجر لم يطب

إلى آخر الأبيات المعروفة ...

وما نُسِبَ إلى الإمام علىّ كرَّم الله وجهه :

تغرَّب عن الأوطان فى طلب العُلا ... وسافِـر ففى الأسفار خمس فوائد

تَفَـرُّج هـــمٍ واكتســاب معيشةٍ ... وعلـــمٌ وأدابٌ وصحبـــة ماجـد

ولكن الذى نلاحظه أن سفر العرب - وبخاصة أهل الخليج - فى السنوات الأخيرة إلى البلدان الأوروبية ، أصبح ظاهرة تلفت النظر ، وتستوجب التوقف لتحليلها ومراجعة ما يترتب عليها من آثار بالغة الخطورة ، وذلك من عدة أوجه :

أولاً : إن هذه البلاد الأوروبية مخالفة لنا فى قِيَمها ومفاهيمها وتقاليدها الاجتماعية ، ويخشى بدوام الاتصال بها والمعايشة لهم أن يؤثروا علينا وخصوصاً على شبابنا وشاباتنا ، فتهتز فى أنفسهم قيمنا الراسخة ، وتقاليدنا المبنية على عقائد ديننا وأحكام شريعتنا ، وهذا ما حدث ويحدث بالفعل . ولا سيما أن أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية قد أصابها من التحلل والانهيار الخُلُقى ما جعل مفكريها ومصلحيها يشكون مُرَّ الشكوى منه ، وينذرون بسوء العاقبة من استمراره .

وقد حكى لى أحد الأخوة ممن زار لندن فى هذا الصيف المنصرم : أنه شاهد فى حديقة « الهايد بارك » بعض المناظر الشاذة المكشوفة ، فسألته ابنته الصغيرة : ماذا يفعل هؤلاء ؟ فقال لها : هؤلاء حيوانات !

فقالت له : وماذا تفعل الحيوانات ؟! ولم يستطع الأب أن يجيب .. فانتقل إلى مكان آخر فرأى منظراً أسوأ من سابقه !! فلم يجد حيلة إلا الرجوع إلى المنزل .

ثانياً : إن هذه البلاد أصبحت حافلة بسماسرة الفساد والإفساد الذين يتلقفون شبابنا منذ نزولهم من الطائرة ، لإغراقهم فى الشهوات المحرَّمة ، التى تُنهك صحتهم ، وتُفسد أخلاقهم ، وتُبدِّد أموالهم وتُعوِّدهم على أشياء مرذولة حتى يعودوا إلى أوطانهم ، وقد مُسخت شخصياتهم ، وتغيرت أفكارهم وقِيَمهم . وهم يحاولون أن ينشروا ما تعوَّدوا عليه داخل أوطانهم نفسها فينتشر الفساد بالعدوى كما يعدى الأجرب السليم ، وقد حدَّثنى بعض الشباب الصالح أنهم كان لهم أصدقاء مستقيمون حتى سافروا فوقعوا فى الشَرَك ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه من طهارة الاستقامة .

ثالثاً : إن السياحة الآن أصبحت مورداً من الموارد الهامة لكثير من الدول المعاصرة . وقد أصبحنا نحن العرب من أضخم الموارد لعدد منها . والعجيب أنها تأخذ أموالنا ولا تتحدث عنا إلا بسوء .

وكان الواجب علينا أن نضنَّ بهذه الأموال عن تلك البلاد التى تقف من قضايانا موقفاً شائناً . وأن نجتهد فى جعل السياحة داخل بلادنا العربية الإسلامية .

ولو أنفقنا ما يُصرف على الاصطياف فى أوروبا وغيرها على تحسين المواطن السياحية فى بلادنا ، لارتقينا بها ارتقاءً كبيراً ، وفى بلد مثل السعودية نجد فى الطائف وأبْهَا وغيرها ما يُغنى عن أوروبا لو وجَّهنا عنايتنا إليها . وفى مصر وشمال إفريقيا مناطق سياحية فى غاية الروعة والجمال .

* * *

● يقول علماء التربية : إن مناهج التربية الحديثة قد تطوّرت وغدت رائدة فى وسائلها وتنوع أساليبها ، ما رأى فضيلتكم فى هذه التربية ؟ وهل استطاعت أن تُصلح شيئاً من فساد المجتمع ؟ . وما هو البديل من وجهة نظركم ؟

● ● لا ننكر ولا ينكر أحد درس شيئاً عن التربية الحديثة ، ما انتهت إليه مناهجها من تطور ، وما حفلت به من خطوات سبّاقة فى وسائلها وأساليبها نظراً لأهميتها فى تكوين الأجيال ، وصناعة إنسان الغد ، وقد توفرت عليها عقول كبيرة من رجال الفلسفة أو علم النفس ، أو المشتغلين فى الحقل التربوى . ولا بد لنا أن نستفيد من هذه الوسائل والأساليب لتطوير التعلم عندنا وتحسينه فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها .

ولكن ينبغى لنا أن نُنبِّه هنا على بعض النقاط :

أولاً : أن الأهم من وسائل التربية وأساليبها هو أهدافها ، أعنى : ماذا نريد بالتربية ؟ أى نوع من الناس نريد أن نُربيه ؟ فلا ريب أن هدفنا الأسمى من التربية ليس نفس هدف الغربيين الليبراليين ، وأهدافنا العُليا من الحياة غير أهدافهم ، ونظرتنا إلى الوجود والتاريخ غير نظرتهم . وفلسفتنا فى التعامل مع الفرد والمجتمع غير فلسفتهم .

نحن نريد الإنسان المؤمن المنتِج ، الصالح فى نفسه ، المُصلح لغيره ، الذى يعيش فى الحياة لهدف ورسالة . لا نريد تراباً يأكل من التراب ، ويمشى على التراب وينتهى إلى التراب ! نريد إنسان « سورة العصر » الذى لخّص القرآن أوصافه وسِماته بهذه الكلمات المعدودة : ﴿ وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة العصر كاملة .

نريد الإنسان المنتج المعْطاء الذى يعطى الحياة كما يأخذ منها ، ولا يتخلى عن العمل والعطاء حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها ، حتى لو قامت الساعة ، وفى يده فسيلة يريد أن يغرسها ، فلا يقوم حتى يغرسها ، كما علّمه رسول الله ﷺ ، ويؤدى الواجب قبل أن يطلب الحق ، ويُحب لأخيه المسلم ما يُحب لنفسه ، ويعيش لأمته المسلمة قبل أن يعيش لذاته .. إلخ .

هذه الأهداف المنشودة فى تربية المسلم والمسلمة .

ولا يخفى أن ثمت ارتباطاً وثيقاً بين الوسائل والأهداف .. ولو نظرنا إلى التربية فى عالَم الحيوان ، لوجدنا أن البقرة التى تُربَى للحم ، غير التى تُربَى لدر اللبن ، غير الأخرى التى تُربَى للعمل فى الحقل والسقى والحرث ، فلكل نوع وسائل وأساليب فى تربيته يختلف عن الآخر .

ولهذا يجب أن نُحدِّد هدفنا من التربية ما هو ؟ هل هو مجرد الإنسان الناجح فى حياته الدنيا ؟ كما تدعو إليه المدرسة « البراجماتية » مدرسة المنفعة ؟ هل هو الإنسان المحايد بالنسبة للّه والنبوّة والآخرة والأديان كما هى التربية العلمانية ؟ .. أو هو إنسان آخر له إيمانه وقيَمه وضوابطه السلوكية المتميزة التى سمّاها القرآن : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ؟ (١) .

وبهذا يجب أن تكون المناهج والوسائل كلها فى خدمة « الهدف المقصود والرسالة المنشودة » .

ثانياً : إن التربية فى مفهوم الإسلام هى التربية المتكاملة ، وليست التربية الدينية وحدها كما يتوهّم كثيرون .

فالتربية « الدينية » نوع واحد من أنواع التربية « الإسلامية » التى يحرص عليها الإسلام ويدعو إليها .

وأستطيع أن أذكر هنا سبعة عشر لوناً من التربية تدخل فى إطار التربية الإسلامية مثل :

---

(١) الفاتحة : ٦

التربية العقلية ، والتربية البدنية ، والتربية الصحية ، والتربية الخُلُقية ، والتربية العلمية ، والتربية المهنية ، والتربية الأدبية ، والتربية الفنية « الجمالية » ، والتربية الجنسية ، والتربية الاجتماعية ، والتربية العسكرية ، والتربية الاقتصادية ، والتربية السياسية ، والتربية الإنسانية .. بالإضافة إلى التربية الدينية أو الروحية كما قد تسمى ، وكلها ينبغى أن تتكامل وتسير جنباً إلى جنب حتى تتكوَّن فى إطارها الشخصية المسلمة التى تُناط بها الآمال .

ثالثاً : إن المنهج والأسلوب والكتاب كلها أمور مهمة فى التربية ، ولكن أهم منها : المُربى ، المُعلِّم ، العنصر الفعَّال ، فى التربية ، والذى قد يستطيع بإخلاصه وقُدرته أن يتدارك قصور المنهج والكتاب ، ويمكنه بعكس ذلك أن يُفسد المنهج الصالح ، ويُميت الكتاب الحى ، ويُحيل جذوة الطالب المتقدم إلى رماد !

رابعاً : لا يجوز أن تكون المدرسة وحدها مسئولة عن التربية ، فالأسرة أيضاً مسئولة ، الأبوان مسئولان .. وتعاون البيت والمدرسة أمر واجب ، وليست مهمة الآباء والأمهات أن ينجبوا الأبناء أو البنات ، ثم يدعوهم فى ميدان الحياة وحدهم . كل ما عليهم أن يوفروا لهم الطعام والشراب والكساء ، ووسائل الراحة والترفيه ، ولا يدرون ما يحدث بعد ذلك ، واللّه تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ (١) ، والرسول ﷺ يقول : « كلكم راع .. وكلكم مسئول عن رعيته » .

ثم إنَّ الأجهزة والمؤسسات التوجيهية المختلفة ، عليها مسئولية مماثلة عن التربية ، سواء أكانت رسمية أم شعبية : الصحافة ، والإذاعة والتلفاز ، والشعر والأدب ، وغيرها ، كلها مسئولة ، وبخاصة أجهزة الإعلام ، التى كثيراً ما تهدم ما تبنيه المؤسسات التربوية . وقد عقد مكتب التربية العربى لدول الخليج ندوة مهمة تحت عنوان « ماذا يريد التربويون من الإعلاميين » ؟ صدرت أبحاثها ومناقشاتها فى مجلد ، لعل إخواننا من رجال الإعلام يفيدون منها .

---

(١) التحريم : ٦

لقد أطلتُ فى الإجابة عن هذا السؤال لما له من أهمية خاصة ولا مستقبل لأمتنا إلا بتربية إسلامية تستمد روحها وأصولها من الإسلام وتستفيد من كل مستحدثات العصر ، دون انغلاق على القديم ، ولا افتتان بالجديد .

* *

مناهج التربية الإسلامية
وتكوين جيل النصر المنشود

● وبمناسبة الحديث عن التربية وأهميتها ، هل ترى مناهج التربية الدينية « الإسلامية » ومقرراتها فى مدارس البلاد الإسلامية كافية فى تكوين الجيل المسلم المنشود ؟

● ● مما لا خلاف عليه أن البلاد تتفاوت تفاوتاً كبيراً فيما بينها فيما يتعلق بالتربية الدينية « الإسلامية » فهناك بلاد تجعل التربية الدينية شيئاً على الهامش ، أو مادة اختيارية ليس فيها نجاح ورسوب .

وهناك مَن يجعل التربية الدينية تابعة للغة العربية ، ليس لها مدرسها الخاص ، ولا تفتيشها الخاص ، وكثيراً ، تُبتلع حصصها فى جوف اللغة العربية ، وهناك مَن يضع تحت عنوان التربية الدينية ، مفاهيم معيَّنة يُراد قسر الدين عليها قسراً ، ومَن يُضخِّم أشياء معينة من الدين على حساب أشياء أخرى . وهناك مَن يعطى للتربية الدينية - أو ما يسمى فى بعض البلاد ، مثل قَطَر : العلوم الشرعية - من العناية الكمية والكيفية شيئاً كثيراً .

ولكن أود أن أؤكد هنا جملة حقائق مهمة كنت كتبتها لبعض المؤسسات التربوية العربية بشأن التربية الدينية « الإسلامية » :

١ - ليست التربية الإسلامية مجرد معلومات دينية أو حقائق إسلامية تُلقَى فى الدرس المخصَّص للدين ، ضمن الخطة الدراسية . إن التربية الإسلامية ليست مقصورة على شحن الذاكرة بالمعلومات وإن كانت صحيحة ونافعة . إنها

عملية أعمق وأكبر ، لهذا يجب أن تخاطب العقل والقلب معاً . وأن تهدف إلى تكوين العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية ومن ورائها الشخصية الإسلامية المنشودة .

٢ - إن حصة الدين أو العلوم الشرعية الرسمية لا ينبغى أن تكون هى وحدها مجال التربية الإسلامية فكل المواد العلمية والأدبية يجب أن تُسهم فى التربية الإسلامية . ودرسٌ من دروس الفيزياء أو الكيمياء ، أو الأحياء ، أو الجغرافيا إذا عرضه مُعلِّم مؤمن من زاوية إسلامية ، ومن منطلق إيمانى ، يكون أشد تأثيراً فى أنفس الناشئة وغرس معانى الإيمان فيها من درس الدين الرسمى ، ورُبَّ موضوع من موضوعات القراءة أو نص من نصوص الأدب ، أو فصل من فصول التاريخ ، أو قانون من قوانين العلم .. إذا كُتب وعُرِض فى ضوء حقائق الإيمان والإسلام ، يؤتى ثمرة للتربية الإسلامية المنشودة ، فوق ما تؤديه كتبها المقرَّرة . إن التوجيه غير المباشر أنفع دائماً من التوجيه المباشر ، والتوجيه من غير المحترف أقوى تأثيراً من توجيه المحترف ، والتوجيه الذى لا يُطلب للامتحان أشد لصوقاً بالنفس مما يُدرس لأجل الامتحان .

٣ - إن التربية الإسلامية ليست مقصورة على الدرس فى الفصل أو الصف فقط . إن المدرسة كلها يجب أن تكون ميداناً للتربية الإسلامية . إن النشاط المدرسى يجب أن يتجه لخدمة التربية الإسلامية ، كلمات الصباح .. الإذاعة المدرسية .. مجلات الحائط .. الملصقات .. اللوحات .. الندوات .. المحاضرات .. نشاط الأسر ، نشاط الجماعات المختلفة ، وعلى رأسها جماعة التربية الإسلامية .

٤ - إن الجانب العملى فى التربية له المقام الأول فى التأثير ، ولهذا يجب أن ينال العناية اللائقة به ، حتى يوضع العِلم النظرى موضع الممارسة والتطبيق ، وأبرز مثل على ذلك هو العناية بالمسجد ، وإقامة الصلاة جماعة فى ميقاتها .. بعد إعلان الأذان من إذاعة المدرسة ، وأن يهرع الجميع إلى الصلاة : الطلاَّب والمعلِّمون ، والإدارة ، وفى مقدمة الجميع مدير المدرسة .

٥ - إن التربية الإسلامية ليست محصورة فى داخل المدرسة فحسب إنما ينبغى أن تمتد إلى ما وراء المدرسة من نشاطات متنوعة تقوم تحت إشراف المدرسة نفسها ، من رحلات كشفية أو علمية أو اجتماعية ، ومن معسكرات ومخيمات ، ومن أندية مسائية وأندية صيفية .. إلخ .

كما ينبغى أن تستعين المدرسة بمجالس الآباء والأمهات للتعاون على حُسن توجيه الأبناء والبنات ، التوجيه الإسلامى المطلوب .

وهذا كله لا يُقلِّل من أهمية منهج التربية الإسلامية ، وكتاب التربية الإسلامية ، ودرس التربية الإسلامية ، ومُعلِّم التربية الإسلامية ، فهذه - ولا شك - أساس البناء .. وإن كانت وحدها لا تكفى .. وللتفصيل مجال آخر .

* *

تجربة المصارف الإسلامية

● ما مدى نجاح تجربة المصارف الإسلامية وهل تتوقعون لهذه التجارب الثبات والاستمرار ؟

● ● تجربة المصارف الإسلامية تجربة تستحق التنويه والتشجيع والتأييد ولا شك . فقد نقلتنا من الميدان النظرى إلى الميدان التطبيقى . وبعد أن كان يُقال : إنه يستحيل أن يُقام اقتصاد إسلامى بلا بنوك ، ويستحيل أن تقوم بنوك بلا فوائد (والفوائد هى الربا) أصبح الناس يشهدون بأعينهم قيام هذه المؤسسات المالية والمصرفية على غير الربا . لقد مضى وقت على المسلمين فى هذا العصر ، حاول بعضهم - تحت تأثير الهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب وأنظمته - أن يلوى أعناق النصوص الإسلامية ليبيح الربا ، ويبرره بأسانيد شرعية مفتعلة .. ثم جاء عصر انتصر الاتجاه الأصيل القائل بأن الربا حرام حرام حرام ، ولا بد من إيجاد بديل للمؤسسات الربوية .

ثم جاء عصر إيجاد البدائل على الورق ، ثم انتقلت من الورق إلى حَيِّز الواقع وقام أول بنك إسلامى فى « دبى » منذ نحو تسع سنوات ، تلته بنوك أخرى فى عدد من البلدان الإسلامية .

وقد استطاعت هذه المصارف الإسلامية أن تُعيد للمسلمين ثقتهم بينهم وبين أنفسهم ، وأن تفتح لهم أبواباً للاستثمار كانت مهملة مثل المشاركة والمضاربة والمرابحة ، وهيأت للكثيرين من أفراد المسلمين أن يُودعوا أموالهم لتُستثمر فى الحلال ، وهيأت للكثير من أصحاب المشروعات أن يجدوا التمويل اللازم لمشروعاتهم بطريقة بعيدة عما حرَّم الله .

ولا ندَّعى - كما لا تدَّعى المصارف الإسلامية نفسها - أنها وصلت إلى درجة الكمال فهى لا تزال فى أول الطريق ، وهى لا تملك إلا مساحة ضئيلة جداً مما تملكه البنوك الربوية وهى دائمة العمل على تطوير نفسها وتحسين أدائها من عدَّة أوجه :

١ - من ناحية إعداد العناصر البَشرية التى تجمع بين الالتزام الإسلامى فى الخُلُق والسلوك والفهم لأحكام الشريعة ، وبين الخبرة المالية والمصرفية والإدارية وهذا أمر فى غاية الأهمية ، وينبغى أن يتعاون عليه كل مَن يهمه أمر الإسلام عامة ، والاقتصاد الإسلامى ومؤسساته خاصة .

٢ - من ناحية الخروج من بعض الأُطر التى بدأت بها المصارف الإسلامية لاعتبارات معروفة مثل « توفير الربح للمودعين » ، واحتلت مساحة كبيرة من نشاطها ، مثل « بيع المرابحة » الذى لا أشك فى جوازه ، وقد أَلَّفتُ فى ذلك كتاباً خاصاً . ولكن يحسن بالمصارف الإسلامية أن تخرج إلى ميادين التنمية المختلفة فى المجتمعات الإسلامية والاتجاه إلى المشروعات الطويلة الأجل ، التى قد لا تعطى مردوداً للمساهمين فيها إلا بعد مدة .

٣ - من ناحية التعاون فيما بين المصارف الإسلامية على ما فيه مصلحتها جميعاً ، والوقوف فى وجه المكايد التى قد تُدبَّر لها ، وهذا ما يتمثل اليوم فى

مجلس اتحاد المصارف الإسلامية ، الذى بدأ يفكر فى مشروعات جَماعية كبيرة مثل « المصرف الإسلامى العالَمى » الذى يُرجَى أن يؤسّس برأس مال قدره (٥٠٠ مليون دولار) للقيام بالمشروعات الطويلة المدى . ويتبع هذا المجلس هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعية ، من مجموعة من علماء العالَم الإسلامى . وبهذا أقول : إن التجربة - والحمد للّه - راسخة القدم ، مصممة على الاستمرار فى المسيرة . ماضية فى درب التطوير والتحسين بعزم صادق وإرادة لا تلين . ومَن سار على الدرب وصل ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

* *

مواجهة المنظمات التبشيرية

● المنظمات التبشيرية فى العالَم الغربى تقوم بدور فعّال فى العالَم الإسلامى . أليس من المفروض أن تكون هناك منظمات إسلامية تقاوِم هذا الغزو وتدعو إلى الإسلام ؟

● ● هذا هو المفروض الذى يوجبه علينا الدين ، ويفرضه علينا الواقع ، حماية لوجودنا الإسلامى من الهجمات الشرسة ، التى تريد أن تجتثنا من جذورنا . وهذا ما جعلنى أدعو منذ حوالى سنتين إلى وجوب الوقوف الجَماعى فى وجه هذا الغزو المسلّح الخطير . وخصوصاً بعد أن قرأنا ما نُشِر - مؤيَّداً بالوثائق - عن المؤتمر التنصيرى الذى اجتمع فى ولاية « كلورادو » بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨ لغاية محدَّدة هى العمل على تنصير المسلمين فى العالَم . ورصدوا لذلك مبلغاً من المال هو ألف مليون دولار ، وأنشأوا معهداً لهذا الغرض سمى « معهد زويمر » إحياءً لذكرى هذا المبشر المعروف فى الشرق الأوسط فى أوائل هذا القرن . وقد بدأ القوم نشاطهم بالفعل فى شتّى أنحاء البلاد الإسلامية وبين الأقليات والجاليات والتجمعات الإسلامية خارج العالَم الإسلامى ، وهم يستغلون ضحايا الفقر والتشرد والمرض والجهل والأميّة فى آسيا وإفريقيا . ويتسلّلون من ذلك لفتنتهم عن دينهم . ونحن لا نلوم القوم إذا

بذلوا ونشطوا لنشر دينهم إنما نلوم أنفسنا إذا تقاعسنا عن الدفاع عن ذاتنا ، ولم نبذل مثل ما بذلوا . ونحن لا ينقصنا المال ، ففى المسلمين مَن يملكون الملايين وعشرات الملايين ومئات الملايين ، بل إن المسلمين - الذين يبلغ عددهم اليوم ملياراً من البَشر - لو دفع كل واحد منهم دولاراً واحداً ، لجمعنا الألف مليون . وإذا كان اليهود فى الأربعينات فى الولايات المتحدة ، وغيرها ، قد رفعوا شعار : « ادفع دولار تقتل عربياً » فنحن نرفع شعار : « ادفع دولار تنقذ مسلماً » .. نحن لا نريد أن نقتل أحداً ولا أن نعتدى على أحد وإنما نريد الإبقاء على كياننا ووجودنا ولا نقبل من أحد أن يسلخنا عن ذاتيتنا . وإنى لأحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه أن كلّل جهودى بالنجاح ، وقامت لهذا الغرض مؤسسة كبرى باسم « الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية » ومقرها دولة الكويت الشقيقة ، ولكنها للمسلمين فى كل مكان وقد اجتمعت جمعيتها التأسيسية فى ١٧ و ١٨ من شهر رمضان الماضى ، من ١٦٠ شخصية إسلامية تمثل الأمة المسلمة فى الشرق والغرب ، وأقرّت النظام الأساسى واختارت مجلس الإدارة وبدأت العمل وينتظر من ورائها خير كثير .

وهذه الهيئة لا تعمل فى المجال السياسى ولا العسكرى إنما مجالها النشاط الخيرى والاجتماعى والتنموى ، كما حدّد ذلك نظامها الأساسى ، ومهمتها الأولى أن توفر الطعام للجائع ، والكساء للعريان ، والدواء للمريض ، والإيواء للمشرد ، والرعاية لليتيم ، والتعليم للجاهل ، والتشغيل للعاطل ، والتدريب للعامل ، والارتفاع بمستوى المسلمين حيثما كانوا ، والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، والرد العلمى الموضوعى على شُبهات خصوم الإسلام وأباطيلهم ، وبيان حقائق الدين ، ونشر اللغة العربية وتعليم القرآن بأساليب العصر .

وعلى جميع المسلمين أن يَشدُّوا أزر هذه الهيئة ، ويقفوا بجانبها ، فهى ليست ملك فرد ولا مجموعة ولا دولة ، ولكنها مِلك الأمة الإسلامية كلها ومِلك الأجيال القادمة أيضاً .

* *

محاولة تطبيق الشريعة فى بعض البلاد الإسلامية

● تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان والباكستان - ما مدى نجاح هذه التجربة ؟ وما هو الدور الذى يمكن أن تُسهم به الدول الإسلامية وخاصة الدول الخليجية فى مساندة هذه التجربة المباركة ؟

● ● فى المؤتمر الإسلامى العالَمى الأول الذى انعقد فى الخرطوم بمناسبة مرور سنة على البدء بتطبيق أحكام الشريعة اعترض بعض الأخوة على استخدام كلمة « تجربة » بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان أو غيره ، وحجتهم أن التجربة ما يحتمل الصواب والخطأ ، كما يمكن التفكير فى العدول وهذا لا ينطبق على الشريعة الإسلامية . ولا ريب أن الاعتراض مقبول ، وقد يُقبل من باب التسامح أو المشاكلة ، كما يقول علماءِ البلاغة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ (١) ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (٢) ... إلخ .

والأولى استعمال كلمة « ممارسة أو مسيرة أو نموذج » أو نحو ذلك ومعلوم أن المتفَق عليه خير من المختَلف فيه .

ولنرجع إلى الموضوع ذاته . وهنا أقول :

إذا كان تطبيق الشريعة فرضاً دينياً لازماً علينا بحكم عقد الإيمان ومعنى الإسلام فلا يجوز أن نفكر فى مدى نجاح التطبيق أو عدمه فإذا نجح تمسكنا به ، وإذا أخفق رجعنا عنه ! إذ لا خيار لنا فى ذلك إلا إذا خنا زمننا وتحدينا إيماننا . والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ٥٤ (٢) الشورى : ٤٠

(٣) الأحزاب : ٣٦ (٤) النساء : ٦٥

ويقول : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١) .

كل ما يجوز قوله هنا أننا نتابع التطبيق بيقظة وبصيرة واجتهاد متفتح على العصر ومرتكز على الإسلام فى ينابيعه الصافية ، وأن نحذر من الانحراف ، وسوء التطبيق حتى لا يُحسب هذا على الإسلام ذاته ، ولقد قلت لإخواننا فى السودان : إننى باسمى واسم إخوانى العلماء نضع أنفسنا جنوداً تحت تصرفكم لترشيد المسيرة وتوجيهها إلى الخط الإسلامى السليم .

ومما نبَّهتُ وأنبِّه عليه دائماً : أن تطبيق الشريعة ليس معناه إقامة الحدود فقط ، ولا مجرد تغيير القوانين الوضعية بقوانين إسلامية ، فالقوانين وحدها لا تصنع المجتمعات .. نحن نريد للمجتمع أن يحيا بالإسلام ، ويحيا للإسلام . ونصبغ حياته كلها بصبغة الإسلام ، وهذا يحتاج إلى عمل تربوى ، وعمل إعلامى ، وعمل فكرى ، وعمل اجتماعى ، وعلى كل المستويات ، ولا بد أن تتعاون المؤسسات والأجهزة كلها على صناعة المجتمع المنشود ، وهو لا يُصنع بين عشية وضحاها ، كما نبَّهتُ وأنبِّه دائماً : أن الإسلام كلٌ لا يتجزأ : ﴿ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (٢) ، ولا يجوز أن نكون مثل بنى إسرائيل الذين قرعهم الله بقوله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ؟! (٣) .

وقد قال الله لرسوله : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٤) فالإسلام « وصفة » متكاملة ، يرتبط بعضها ببعض . وليس معنى هذا أن نرفض ما يطبق من الإسلام حتى يُطبَّق كله مائة فى المائة . بل المهم أن تكون النية قائمة على أخذ الإسلام كله ، وأن تكون خطة مرسومة للتحول الكامل إلى الإسلام الكامل .

---

(١) المائدة : ٤٩ (٢) البقرة : ٢٠٨

(٣) البقرة : ٨٥ (٤) المائدة : ٤٩

وقد أعجبنى تسمية الأخوة فى السودان لهذه المرحلة « التحول نحو الإسلام » فهم لا يزعمون أنهم طبّقوا كل شئ ، ولكنهم فى الطريق سائرون .

وأمر آخر فى غاية الأهمية ، وهو العنصر البَشرى الذى يعيش فى الإسلام ، ويعيش فيه الإسلام إيماناً وفكراً وسلوكاً ، هذا العنصر يجب أن تكون له الأولوية فى سد الثغرات وملء المواقع ، وتوجيه أزِمّة الأمور ، فإن من أخطر الأشياء أن يوكل أمر تطبيق الإسلام إلى مَن لا يؤمن بالإسلام . وهذا هو باب الهلاك ، كما فى الحديث : « إذا وُسِد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » . رواه البخارى .

* *

الترغيب والترهيب فى الدَعوة الإسلامية

● يبرز بعض الدعاة مسألة العقوبات ، والعقاب بالنار ، وسخط اللّه على العصاة كأساس هام لردع الناس عن المعاصى ، فأيهما أفضل الترغيب أم الترهيب ، والبدء بالجنة أم النار ؟

● ● الموقف السليم هنا ما ذكره الإمام على رضى اللّه عنه حين قال : « ألا أخبركم بالعالِم كل العالم ؟ مَن لم يوئس عباد اللّه من روح اللّه ، ولم يؤمِّنهم من مكره » . ومعنى هذا أن يعمل العالِم أو الداعية على الموازنة بين الرجاء والخوف ، والرغب والرهب فى نفس الإنسان ، فلا يبالغ فى التخويف والترهيب بحيث يبلغ به درجة اليأس من روح اللّه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) ، ولا يبالغ فى الترجية والترغيب بحيث ينتهى إلى درجة الأمن من مكر اللّه تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

ومَن يقرأ القرآن يجده يوازن بين الأمرين ، فهو حين يذكر صفات اللّه تعالى يذكر صفات الرحمة وصفات القوّة ، أو صفات الجمال وصفات الجلال ، كما فى

---

(١) يوسف : ٨٧ (٢) الأعراف : ٩٩

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾ (٣) .

وحين يذكر الآخرة يذكر الثواب والعقاب ، والرحمة والعذاب ، والجنة والنار : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ (٤) .

وحين يصف المؤمنين يجعلهم بين الرجاء والخوف : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٥) ، ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (٦) ، ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ (٧) .

ومما يروى عن أمير المؤمنين عمر قوله : لو نادى منادٍ يوم القيامة : كل الناس فى الجنة إلا واحداً ، لخفتُ أن أكون ذلك الواحد ، ولو نادى منادٍ : كل الناس فى النار إلا واحداً لرجوتُ أن أكون ذلك الواحد » !

وقد رأيتُ بالتجربة فى ميدان الدعوة والإرشاد : أن تغليب جانب الرحمة والرجاء يؤثر فى كثير من الناس ، ويفتح لهم باب التوبة ، ويبقيهم على خيط موصول بالدين ، مهما يكن واهياً .

أما تغليب جانب التخويف والتغليظ دائماً ، فقد يؤثر فى عدد من الناس ، ولكنه كثيراً ما يؤدى إلى نتائج عكسية ، فبعض الناس إذا عرف أنه غريق فى المعصية ، وأن جهنم له بالمرصاد ، يعتقد أنه هالك هالك لا محالة ، فيتمادى فى الخطايا ، ويستمر فى الذنوب ويبأس من المغفرة ، وقد يدفعه هذا إلى ارتكاب أعظم الموبقات ، كما أن المبالغة فى التخويف قد تورث عقداً مَرَضية تضر أكثر مما تنفع،فلنتبع طريقة القرآن فى المزج بين الرجاء والخوف بتوازن

---

(١) غافر : ٣ (٢) الأعراف : ١٦٧ (٣) الرعد : ٦
(٤) الحديد : ٢٠ (٥) الإسراء : ٥٧ (٦) الزمر : ٩
(٧) الأنبياء : ٩٠

واعتدال ، ولنذكر أمر الله لرسوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ من رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* * *

التخصص العلمى الدقيق فى علوم الشريعة

● نلاحظ أن أقسام التعليم الجامعى تقوم على التخصص ثم التخصص الدقيق بعد ذلك .. هل يصلح هذا النهج بالنسبة لعلماء الشريعة ؟ ولماذا لم يلتزم العلماء الأوائل بهذا النهج ؟

● ● سُنَّة الله أن الإنسان لا يستطيع أن يُحسن كل شئ ، فلا بد أن ينقطع لشئ يُحسنه ويتفوّق فيه ، وهذا معنى التخصص . وهو ما أشار إليه القرآن حين قال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ (٢) كَافَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) .

ولهذا رأينا فى الصحابة رضى الله عنهم القُوّاد والعلماء ، ورأينا فى العلماء منهم مَن اشتهر بالرواية كأبى هريرة ، ومَن اشتهر بالدراية كابن عباس . وبعد الصحابة رأينا فى التابعين المحدِّث والمفسِّر والفقيه ، كما وجدنا فيهم مَن يجمع ذلك كله .

وهكذا بعد عصر التابعين نجد فيهم مَن يغلب عليه نوع من التخصص فى ناحية من نواحى الثقافة الإسلامية . ومَن نجد ثقافته ثقافة موسوعية كما يتضح ذلك فى مثل أبى جعفر ابن جرير الطبرى ، فهو شيخ المفسِّرين ، وتفسيره يدل على علو كعبه فى معرفة اللغة والقراءات وكل ما يتعلق بعلوم القرآن .. وهو إمام فى التاريخ ، وكتابه فيه معروف ، وهو كذلك فى الحديث والأثر ، وله

---

(١) الزمر : ٥٣ (٢) أى للجهاد . (٣) التوبة : ١٢٢

كتاب « تهذيب الآثار » الذى لم يكن له نظير فى بابه . وهو فى الفقه إمام ، له مذهب مستقل كان له أتباع يسمون بـ « الطبرية » انقرضوا ، ونجد مثل هذا فى رجل كابن الجوزى ، وابن كثير ، والغزالى ، وابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم .

بل نجد مثل ابن رشد الحفيد يبلغ القمة فى الفلسفة حتى إن شرحه لأرسطو كان مرجعاً للعالَم كله لعدة قرون . وفى الطب فى كتابه الشهير « الكليات » وفى الفقه فى كتابه الفريد « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

غير أن عصرنا اليوم لم يعد يسمح بظهور هذا النوع من الرجال الموسوعيين الذين كان أحدهم يعتبر دائرة معارف لعصره .

ذلك أن اتساع المعرفة ونموها المطرد - الذى يعبرون عنه بـ « انفجار المعرفة » جعل من المتعذر - بل من المستحيل - على شخص مهما يكن نبوغه الإحاطة بكل هذه المعارف ، بل أصبح العِلم الواحد ينقسم إلى عدة فروع ، والفرع إلى تخصصات . فالطب أقسام ، وكل قسم منه يتفرع إلى شُعَب كثيرة . وكذلك الفيزياء والكيمياء ، والهندسة وغيرها .

ومثل هذا يقال فى العلوم الإسلامية . فقد يتعذر أو يتعسر ظهور مَن يجمع هذه العلوم كلها . لهذا كان لا بد من التخصص فى بعضها ، مثل علوم القرآن والسُنَّة ، علوم الفقه والأصول ، علوم العقيدة والمعقولات ، وقد تتفرع هذه نفسها ، فيوجد مَن يتخصص فى التفسير وعلوم القرآن ، ومَن يتخصص فى الحديث وعلومه ورجاله ، ومَن يتخصص فى الفقه وحده ، وفى أصول الفقه وحده .. وهكذا .

بل هناك مَن يتخصص فى متون الحديث ، ومَن يتخصص فى رجال الحديث ، ومَن يتخصص فى فقه مذهب بعينه .. إلخ .

وعلى هذا الأساس وُجدَت فى الجامعات الإسلامية كُليَّات بعضها لأصول الدين (أى العقائد وما يُلحق بها) وبعضها للشريعة (أى للفقه وأصوله) وبعضها للدعوة ، وبعضها للقرآن الكريم ، وبعضها للحديث الشريف . وهناك

جامعات لم تنشئ لهذه التخصصات كليات مستقلة ، وإنما اكتفت بإنشاء أقسام لها داخل كلياتها .

وهذا لا بأس به ما دام القصد منه التعمق والتبحر فى فرع معيَّن من فروع الثقافة الإسلامية ، ولكنّى أشترط لها أن يُدرس فى هذه التخصصات كلها قدر مشترك لا بد منه فى أصول الثقافة الإسلامية فى العقيدة والفقه وأصوله والتفسير وعلوم القرآن ، والحديث وعلومه ، والسيرة والتاريخ الإسلامى ، بحيث يستوعب الحد الأدنى الذى لا يسع العالِم المسلم جهله بدعوى أنه متخصص فى غيره ، ثم يأتى التخصص بعد ذلك .

* *

الموقف السليم من قضية تحديد النسل

● إن قضية تحديد النسل قضية هامة شغلت أذهان الكثير من أبناء المسلمين .. ولقد اختلفت فيها الأقوال وتضاربت الآراء بين محلِّل ومحرِّم .. فما رأى فضيلتكم فى تحديد النسل ؟

● ● النسل من المقاصد الأساسية للزواج فى نظر الإسلام ، حتى يتحقق بقاء النوع الإنسانى ويقوم بدوره فى عمارة الأرض إلى ما شاء اللّه . وإلى هذا يشير القرآن بقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (١) .. وفى الحديث : « تناكحوا تناسلوا » .

ولا ريب أن القوة العددية من النِعَم التى يَمنُّ اللّه بها على الناس ، ومما يفخر بها المفاخرون ، ويُخَوِّف بها المتربصون .

والقرآن يقول فى معرض الامتنان : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) النحل : ٧٢ (٢) الأعراف : ٨٦

والشاعر العربى يقول :

ملأنا البَر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

والآخر يعتذر عن قلّة العدد بقوله :

تُعيِّرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل

ولكن مما لا يُنازَع فيه أن الإسلام لا يريد كثرة كغثاء السيل ، بل يريد الكم والكيف معاً ، فإذا تعارضا فالكيف مقدَّم على الكم .

ومن ثَمَّ لا أجد مانعاً من الشرع يحول بين الأسرة وبين « تنظيم نسلها » لا « تحديده » على معنى أن تجعل بين كل طفل وآخر مدة من الزمن يتمكن فيها الطفل من استيفاء حقه فى الرضاع والرعاية ، والرضاع حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة : ﴿ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ ﴾ (١) .

وكذلك إذا كانت صحة الأم ، أو مقدرتها على حسن الرعاية والتربية ، بدنياً ونفسياً واجتماعياً ، لا تمكنها من توالى الحمل والولادة والإرضاع .. إلخ .

فلا تُكلَّف نفس إلا وسعها ، ولا تُضار والدة بولدها . واللّه يريد بعباده اليُسر ولا يريد بهم العُسر . والمهم هنا مصلحة الأم ومصلحة الطفل ، ولا ضرر ولا ضرار .

وقد كان الصحابة إذا أرادوا ألا تحمل المرأة عزلوا عنها ، ولم ينههم اللّه ولا رسوله عن ذلك ، وأحب أن أنبه هنا إلى عدة نقاط :

١ - لا يجوز أن يكون من المسوغات لمثل هذا الأمر خوف الرزق ، فإن اللّه قد تكفَّل برزق كل حى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٢) ، واللّه قبل أن يخلق الناس بارك فى الأرض وقدَّر فيها أقواتها .

ولكن إذا خاف أن يجره كثرة الأولاد إلى التورط فى الحرام ، مثل قبول الرشوة ، أو الدخول فى المكاسب المحظورة ، أو نحو ذلك فهذا اعتبار دينى يحسب حسابه .

---

(١) لقمان : ١٤ (٢) هود : ٦

٢ - يجب أن يبقى تنظيم النسل مسألة تخضع لظروف الأسرة يتفق عليها الزوجان فيما بينهما ، دون أن يحرجا أنفسهما فى دين أو دنيا .

ولا ينبغى أن يكون ذلك فلسفة عامة للدول تحمل عليها الناس جميعاً ، وأولى من تركيز الجهد على تحديد النسل أن تُبذل جهود علمية منظمة لنتعلم منها الاستخدام الأمثل للطاقات البَشرية المعطلة عندنا ، التى تستهلك ولا تنتج ، وتستورد ولا تنشئ ، وتأخذ ولا تعطى !

٣ - إن بعض الأمم بلغ تعداد سكانها ألف مليون نسمة أو أكثر ولم تضق بهم وجعلت ذلك مصدر قوة لها ، واستغلتها إلى أقصى حد ممكن . ونحن عندنا من مصادر الثروة ما يسع أضعاف أعدادنا لو أننا - نحن العرب والمسلمين - حققنا التعاون والتكامل فيما بيننا ، وأكمل كل منا نقص أخيه ، وأحسنا استغلال ما وهبنا اللّه من نِعَم وخيرات .

كنتُ فى السودان قريباً بمناسبة مرور سنة على بدء تطبيق الشريعة ، ورأينا هناك حاجة السودان إلى استغلال المساحات الشاسعة من أرضه الصالحة للزراعة التى تبلغ نحو مائتى مليون فدان منها حوالى (٨٠ مليوناً) قابلة للزراعة بأدنى النفقات . فلماذا لا يساهم الخليج ببعض ملايينه - أو بلايينه - التى تعمل فى أوروبا وأمريكا ؟ ولماذا لا تساهم مصر بخبراتها الفنية وأيديها العاملة ؟ ولماذا؟ ولماذا ؟؟!!

* *

دور المرأة فى الصَحوة الإسلامية

● فكر المرأة المسلمة فى وقت الصَحوة إلى أين يتجه وكيف تعامل المرأة الملتزمة أخواتها المسلمات البعيدات عن الدين ؟

● ● ينبغى أن يتجه فكر المرأة المسلمة فى عهد الصَحوة ، إلى المشاركة الإيجابية فى توجيه المجتمع إلى الإسلام الصحيح وفى إزالة العوائق من طريق المرأة المسلمة وتحريرها من آثار الاستعمار بكل أنواعه وألوانه .

إلى جانب تحريرها من رواسب الأفكار القديمة التى ليست من الإسلام فى شئ . ونصيحتى لكل مسلمة ملتزمة ممن هداها الله وشرح صدرها للاستقامة على طريق النور ، أن تعامل أخواتها البعيدات عن الدين بالرفق ، وتدعوهن بالحكمة وتستعين بالصبر .

فقد عمل الغزو الثقافى والاجتماعى عمله فى عقل المرأة المسلمة وسلوكها واستطاع فى وقت قصير أن يُخرج المرأة المسلمة من أدبها الإسلامى وتفكيرها الإسلامى مُقلّدة المرأة الغربية تقليداً أعمى ، وتسير وراءها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، فكل « مودة » تخرج من هناك مقبولة ، وإن تكن سخيفة ومرذولة ، حتى لو دخلت « جحر ضب » لدخلت خلفها ، كما بيَّن ذلك الحديث النبوى الشريف ، وهو يُصوِّر فقدان الشخصية والتبعية المطلقة ، وهذا يجعل من الواجب على أهل الدعوة من المسلمين والمسلمات الترفق بهؤلاء الأخوات والبنات ، من أسيرات هذا الغزو الغربى المركّز ، وعملائه وأجهزته داخل وطننا العربى والإسلامى .

ومن هذا الترفق أن نقبل منهن التدرج ، فمَن أدَّت منهن الصلاة وأخَّرت الحجاب شكرنا لها صلاتها ودعوناها إلى الخطوة الأخرى .

ومَن قبلت تغطية الرأس ولم تغط الرقبة مثلاً أثنينا على هذه الخطوة منها وقلنا لها : لا زلنا ننتظر منك الكثير . ومن المهم هنا أن نتخذ « التيسير » منهجاً لنا ، ولا يحسن بنا أن نتبنى أشد الآراء تزمتاً ثم نشكو من عدم الاستجابة لنا ، وقد بُعثنا ميسرين ولم نُبعَث معسرين ، ومَن لم تستجب لنا من أول مرة لم نذمها ولم نيأس منها ، بل نصبر عليها ونكرر الدعوة مرة ومرة حتى يفتح الله قلبها للهداية .

وقد تبيَّن لى من تجربتى فى الدعوة والإفتاء والتدريس الجامعى ومن أسئلة الأخوات التحريرية والمشافهة والهاتفية : أن المرأة أرق قلباً ، وأقرب إلى التدين والخشية من الرجل .

ولا بد للداعية والموجهة من استخدام أقصى الحكمة فى مخاطبة المسلمة المعاصرة ، ومعرفة الأمور التى يحسن التركيز عليها ، والشُبهات التى ينبغى دفعها ، والمفتريات التى يجب ردُّها ، والأحكام المجهولة التى يلزم بيانها ، حتى لا يُظلم الإسلام ذاته حين يُنسب إليه ما كان عليه المسلمون بالأمس فى عصور التخلف ، أو ما هم عليه اليوم فى عصر التبعية الثقافية من جور على المرأة ، وإهمال لحقوقها المقرُرة فى شريعة الله سبحانه .

* * *

بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية

● وضع المرأة الغربية فى عصرنا هذا .. هل يمكن اتخاذه مثالاً يُحتذَى به للمرأة المسلمة .. ولماذا ؟

● ● لا تصلح المرأة الغربية مثالاً تحتذيه المرأة المسلمة لأنها مخالفة للمسلمة فى عقيدتها ومُثُلها وأهدافها وآدابها وتقاليدها .

المرأة الغربية لا ترى فى العلاقات الجنسية ما تراه المرأة المسلمة التى تُقيِّدها فكرة « الحلال والحرام » فى كل ما تأخذ وتدع ، وليست طليقة العنان تفعل ما يحلو لها كالمرأة الغربية التى لم تعد تبالى بمظاهر الإباحية والانطلاق الغريزى المجنون فى الحدائق والطرقات والأماكن العامة . على أن المرأة الغربية اليوم لم تعد راضية عن نفسها ، وعما انتهى إليه حالها ، صحيح إنها زاحمت الرجال بالمناكب فى مواضع العِلم والعمل والأسواق ، ولكنها فى النهاية فقدت خصائص أنوثتها . وأصبحوا يطلقون على المرأة العاملة هناك « الجنس الثالث » أى الذى لم يعد له خصائص الجنس اللطيف من رقة ونعومة وعاطفية ولم يكسب خصائص الجنس الخشن بمزاحمته فى مواضع عمله . بل هو جنس بين بين كالغراب الذى حاول أن يُقلِّد النسر ، فلا صار نسراً ولا بقى غراباً .

* *

موقف المرأة المسلمة
من الأحداث الإسلامية المعاصرة

● الأحداث التى تجابهها أمة الإسلام .. ما موقع المرأة المسلمة منها وماذا عليها عمله ؟

● ● إذا رجعنا إلى عصر الإسلام وما بعده من عصور الازدهار الإسلامى نجد أن المرأة كان لها دورها فى مسيرة الدعوة منذ يومها الأول وفى العهد المكى والعهد المدنى .

ولا ينسى أحد دور أمهات المؤمنين ، ونساء الصحابة رضى الله عنهن . فقد شاركن فى العبادة والعمل والجهاد ، ووجدنا البخارى يذكر فى صحيحه « باب غزو النساء وقتالهن » .

ووجدنا فى كتب التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها عدداً غير قليل من النساء المتفوّقات فى شتّى المجالات .

واليوم بعد أن فشا التعليم بين نساء المسلمين لا بد أن يعود للمرأة مكانها الطبيعى ، لتسهم فى مسيرة الصَحوة الإسلامية ، وبناء الحياة الإسلامية المرجوّة ومناصرة القضايا الإسلامية أينما كانت .

فالعمل للإسلام وقضاياه المصيرية ليس وقفاً على الرجال ، فالمرأة مسئولة كالرجل ومكلّفة مثله وقد قال تعالى : ﴿ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (١) .. وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما النساء شقائق الرجال » . ومما يحتم على المرأة أن تعمل لدينها ، أنّ المرأة اليهودية والنصرانية والشيوعية ونحوها تعمل لعقيدتها وتبذل من جهدها ووقتها ومالها ما تراه واجباً عليها ، بل رأينا منهن مَن تجوب الفيافى وتعيش فى الأدغال لنشر عقيدتها ، ومَن لا تبالى بدخول السجن من أجل فكرتها .

---

(١) آل عمران : ١٩٥

فكيف ترضى المسلمة أن تظل هى حبيسة فى قفصها الذهبى لا يهمها أمر دينها ولا تؤرقها مصائب أُمتها ولا تقاوِم باطل الأخريات بحقها ؟!

إن المرأة المسلمة اليوم - وبخاصة المثقفة - تستطيع أن تخدم دينها ، وتعمل لنُصرة قضاياه ، فى عدَّة مجالات :

أولاً : فى العمل مع بنات جنسها لتوعيتهن وتجنيدهن لنُصرة دينهن ، والإسهام فى العمل الإسلامى . وهذا ليس بالمجال الضيِّق فالمرأة نصف المجتمع ولا سيما المتفوقات بالحضارة الوافدة ، والمسجونات فى سجن التخلف لا بد من دعوتهن والمثابرة معهن ، والمعايشة لهن بحسن الصُحبة وإعطاء الأسوة الحسنة حتى تتغير أفكارهن ومشاعرهن وتقوى إرادتهن على الاستجابة لنداء اللّه ، والسير فى قافلة العمل بالإسلام ، ثم العمل للإسلام .

وكثير من المتدينات - مثل كثير من المتدينين - يحسبن أنهن بمجرد الصلاة والصيام أدَّين كل واجباتهن غافلات عن واجبات الدعوة والنصحية (التى هى الدين) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . وكلها فروض عامة يلْزَم كل مسلم ومسلمة أن يقوم بما يستطيعه منها وأن يتعاون مع غيره فيها : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىَ ﴾ (١) .

ثانياً : هناك مجال آخر مهم لعمل المسلمة الملتزمة وهو عملها داخل أسرتها ، مع زوجها إن كانت زوجة ومع أبنائها إن كانت أماً ، فإن كان هؤلاء من أهل الدعوة والعاملين للإسلام كانت لهم خير معوان على رسالتهم ، كما كانت زوجات السَلَف الصالح وأمهاتهم يحرضنهم على الجهاد ، وعلى الثبات على الحق والصبر على الأذى فى سبيل اللّه . ورُبَّ كلمة تشجيع أو تثبيت من زوج صالحة أو أم مؤمنة كان لها أكبر الأثر فى موقف زوجها أو ابنها ، كما لمسنا ذلك فى وصية الخنساء لأبنائها الأربعة فى معركة القادسية ، وفى وصية أسماء

---

(١) المائدة : ٢

ذات النطاقين لابنها وهو محاصَر مقطوع : عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم جميعاً . وإذا كان الزوج أو الأبناء من ذوى التدين الانسحابى المنزوى عن قضايا المسلمين ، فعليها أن تجتهد فى دعوتهم بالحكمة إلى أن يدلوا بدلوهم فى العمل للإسلام ، حتى تحكم شريعته وتتحرر أرضه وتتحد أمته على كلمة الله وينهزم الباطل فى رؤوس المسلمين وفى حياتهم أمام الحق الذى بعث الله به محمداً ﷺ .

وإذا كان الزوج أو الولد بعيدين عن الدين ، فالواجب هنا مضاعَف ، والمعركة طويلة ، وسلاحها الحكمة والصبر ، وعلينا أن نبذر الحب ونرجو الثمار من الرب ولا يضيع الله أجر المحسنين .

ثالثاً : فى مجال العمل الإسلامى العام ، الذى يشترك فيه الرجال والنساء ويخاطب فيه الجنسان أيضاً ، فالمرأة المسلمة الملتزمة إذا كانت داعية أو مربية أو أديبة أو صحفية ، أو ذات موهبة أو قُدرة خاصة يمكنها أن تشارك بجهدها ومواهبها فى تغذية العمل الإسلامى والفكر الإسلامى وتحريكهما وإمدادهما بالوقود اللازم والمستمر والذى يتطلب من كل قادر وقادرة ألا يضن عليه بما يدفعه خطوة إلى الأمام أو على الأقل يميط الأذى عن طريقه .

* *

اختيار الزوج والزوجة

● ما رأيكم فى زواج الملتزم بفتاة مستهترة غير ملتزمة بحجة أن الفتاة الصالحة هى فتاة قد صلح إيمانها وأن الأخرى فى حاجة لمن يُصلحها ؟

وكذلك زواج الفتاة الملتزمة بفتى مستهتر للحجج السابقة ؟

ما تعليق فضيلتكم على هذا ؟ وهل لهذا العمل من آثار تمس المجتمع المسلم ؟

● ● الإسلام يُوجِّه الشاب المسلم إذا أراد الزواج إلى اختيار الفتاة الصالحة ، التى تكون عوناً له على أمر دينه ، تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ،

وتنصح له إذا حضر ، وتحفظه إذا غاب فى نفسها وماله كما قال تعالى ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (١) .

وهذا ما ينبغى أن يلتفت إليه المسلم ويحرص عليه ولا يكون همه محصوراً فى مجرد الجمال أو النَسب أو المال بل الصلاح كما قال الرسول الكريم : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » ، وقال : « مَن رزقه اللّه امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتقِّ اللّه فى الشطر الباقى » ، « ما استفاد المؤمن من بعد تقوى اللّه خيراً من امرأة صالحة » .

وصلاح المرأة إنما يتجلى فى التزامها الدينى ، بحيث تُكيِّف سلوكها وفقاً لأمر اللّه ونهيه ، وحلاله وحرامه . فمَن وجد هذه المرأة فقد وجد كنزاً عظيماً لا يجوز التفريط فيه بحجج واهية ، وحسبنا وصية رسول اللّه ﷺ الواضحة لطالب الزواج ، والتى وضعت أمامه المعيار الذى لا يخطئ : « فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك » !

فإذا كان هذا هو التوجيه النبوى فكيف يُترك المسلم الملتزم ليتزوج بامرأة مستهترة تنغص عليه عيشه ، وتغدو حجر عثرة فى طريقه ، بدل أن تكون عوناً له ؟؟ مع أن الطبيعى أن ينجذب إلى مَن تكون على شاكلته فشبيه الشئ ينجذب إليه ، والطيور على أشكالها تقع .

ومثل هذا يُقال للفتاة المسلمة ولأهلها عندما يتعرَّض لها الخُطَّاب ، فالواجب تخير صاحب الدين الذى يرعى حقها ، ويتقى اللّه فيها ، ويُعينها على التزامها ، ويضع يده فى يدها للعمل معاً فى خدمة الإسلام . وفى هذا جاء الحديث الشريف : « إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخُلُقه فزوِّجوه ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

---

(١) النساء : ٣٤

أما الزواج من مستهتر بدعوى أن تعمل على صلاحه وهدايته ، فهى نيَّة طيبة ولكنها مخاطرة كبيرة ، لا تؤمَن نتائجها . والمعهود أن يحاول هو التأثير عليها ، فإن لم يستطع نَكَّد عليها وأزعجها بجوه الغريب عنها ، وأصدقائه البعيدين عن الإسلام . وهذا ما حذَّر منه السَلَف حين قالوا : مَن زوَّج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها !

وقالوا : إذا زوَّجت ابنتك فزوِّجها ذا دين ، إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

ومن هنا أؤكد أن المنهج المقبول والميسور هنا أن يبحث المسلم الملتزم وتبحث المسلمة الملتزمة عمن يشابهه ويلتقى معه فى التزامه وتفكيره وسلوكه . بل يحسن أن يكون كلاهما متقاربين فى نمط التفكير والاتجاه حتى لا يعيشا حياتهما فى جدل دائم ، قد يودى فى النهاية بحياتهما المشتركة .

هذا هو منطق الفطرة ، ومنطق الواقع ، ومنطق القرآن : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (١) .

* *

تزويج الأب ابنته بغير رضاها

● يقال بأن الشافعية يبيحون للأب تزويج ابنته البِكر البالغة بدون رضاها ، إذا كان هذا صحيحاً فهل يتفق مع المنهج الإسلامى العام فى اشتراط موافقة الفتاة المسبقة ؟ وهل يُشترط الولى دائماً فى عقد الزواج ؟

● ● من الواجب إزاء هذا السؤال المهم أن نقرر عدة حقائق :

أولاً : هنا قاعدة أساسية لا يختلف فيها اثنان وهى أن كل مجتهد يصيب ويخطئ ، وأن كل واحد يُؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ . والإمام

---

(١) النور : ٢٦

الشافعى إمام عظيم من أئمة المسلمين ، ولكنه بَشر غير معصوم ، وقد قال هو عن نفسه : « رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب » ، كما روى عنه قوله : « إذا صحَّ الحديث فهو مذهبى » ... وفى رواية : « فاضربوا بقولى الحائط » !

ثانياً : من الإنصاف للمجتهدين أن نضع آراءهم فى إطارها التاريخى ، فإن المجتهد ابن بيئته وزمنه ، ولا يمكن إغفال العنصر الذاتى للمجتهد ، وقد عاش الإمام الشافعى فى عصر قلَّما كانت تعرف الفتاة عمن يتقدم لخطبتها شيئاً إلا ما يعرفه أهلها عنه ، لهذا أُعطى والدها خاصة حق تزويجها ولو بغير استئذانها ، لكمال شفقته عليها وافتراض نضجه وحسن رأيه فى اختياره الكفء المناسب لها ، وانتفاء التهمة فى حقه بالنسبة لها .

ومَن يدرى لعلَّ الشافعى رضى اللّه عنه لو عاش إلى زماننا ورأى ما وصلت إليه الفتاة من ثقافة وعلم ، وأنها أصبحت قادرة على التمييز بين الرجال الذين يتقدَّمون إليها ، وأنها إذا زُوِجت بغير رضاها ستستحيل حياتها الزوجية إلى جحيم عليها وعلى زوجها ، لعله لو رأى ذلك لغيَّر رأيه كما غيَّره فى أمور كثيرة ، فمن المعلوم أنه كان له مذهبان ، أحدهما : قديم قبل أن يرحل إلى مصر ، والثانى : جديد بعد أن انتقل إلى مصر واستقر فيها ورأى فيها ما لم يكن قد رأى ، وسمع فيها ما لم يكن قد سمع ، وأصبح من المعروف فى كتب الشافعية : قال الشافعى فى القديم ، وقال الشافعى فى الجديد .

ثالثاً : أن الشافعية شرطوا لتزويج الأب ابنته البِكر بغير إذنها شروطاً منها :

١ - ألا يكون بينه وبينها عداوة ظاهرة ، كطلاق أمها ، أو نحو ذلك .

٢ - أن يزوِّجها من كفء .

٣ - أن يزوِّجها بمهر مثلها .

٤ - ألا يكون الزوج معسراً بالمهر .

٥ - ألا يزوِّجها بمن تتضرر بمعاشرته كأعمى وشيخ هرم .. إلخ .

وفى هذه الشروط تخفيف لبعض آثار الإجبار ، ولكنها لا تحل المشكلة من جذورها .

بعد هذا نقول : قد صح عن النبى ﷺ جملة أحاديث توجب استئمار الفتاة أو استئذانها عند زواجها فلا تزوَّج بغير رضاها ، ولو كان الذى يزوِّجها أباها ، منها ما فى الصحيح : « لا تُنكح البِكر حتى تُستأذن : قالوا : كيف إذنها ؟ قال : « أن تسكت » ، « البِكر تُستأذن فى نفسها ، وإذنها صمتها » ، « الثَيِّبُ أحق بنفسها ، والبِكر يستأذنها أبوها » .

وفى السنن فى حديث ابن عباس : أن جارية بِكراً أتت النبى ﷺ فذكرت أن أباها زوَّجها وهى كارهة ، فخيَّرها النبى ﷺ .

وعن عائشة : أن فتاة دخلت عليها ، فقالت : إن أبى زوَّجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، وأنا كارهة . قلت : اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها ، فقالت : يا رسول الله ، قد أجزتُ ما صنع أبى ، ولكن أردتُ أن يعلم الناس أن ليس للآباء من الأمر شئ .

والظاهر من حالة هذه المرأة أنها بِكر ، كما قال صاحب « سبل السلام » ولعلها البِكر التى فى حديث ابن عباس . وقد زوَّجها أبوها كفئاً - ابن أخيه - وإن كانت ثَيِّباً ، فقد صرَّحت أن ليس مرادها إلا إعلام النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ ! ولفظ « النساء » عام للبِكر والثيِّب . وقد قالت هذا عنده صلى الله عليه وسلم فأقرها عليه .

وكأن هذه الفتاة الراشدة البصيرة أرادت أن توعى بنات جنسها بما جعل لهن الشارع من الحق فى أنفسهن ، حتى لا يتسلط عليهن بعض الآباء أو مَن دونهم من الأولياء ، فيزوِّجوهن بغير رضاهن لمن يكرهنه ويسخطنه .

وقال الإمام الشوكانى فى « نيل الأوطار » : ظاهر الأحاديث أن البِكر البالغة إذا تزوجت بغير إذنها لم يصح العقد ، وإليه ذهب الأوزاعى والثورى والعترة والحنفية ، وحكاه الترمذى عن أكثر أهل العِلم .

وقبل الشوكانى قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتاويه : إن استئذان البكر البالغ واجب على الأب وغيره وإنه لا يجوز إجبارها على النكاح وإن هذا هو الصواب ، وهو رواية عن أحمد واختيار بعض أصحابه ، وهو مذهب أبى حنيفة وغيره ... وقال : إن جعل البكارة موجبة للحجر مخالف لأصول الإسلام ، وتعليل الحجر بذلك تعليل بوصف لا تأثير له فى الشرع .

وقال الإمام ابن القيم فى « زاد المعاد » بعد ذكر ما حكم به النبى ﷺ من وجوب استئذان البِكر : وموجب هذا الحكم : ألا تُجبر البِكر البالغ على النكاح ، ولا تزوَّج إلا برضاها ، وهذا قول جمهور السَلَف ومذهب أبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايات عنه ، وهو القول الذى ندين لله به ، ولا نعتقد سواه ، وهو الموافق لحكم رسول اللّه ﷺ وأمره ونهيه ، وقواعد شريعته ومصالح أمته .. وأفاض فى بيان ذلك رضى الله عنه .

وهذا أيضاً ما أدين لله به ، ولا أعتقد سواه ، وإن قال مَن قال بخلاف ذلك

وأما تزويج المرأة نفسها بغير إذن وليها ، فهو جائز عند أبى حنيفة وأصحابه إذا تزوجت كفئاً ، حيث لم يصح عندهم حديث فى اشتراط الولى ، وهذا أيضاً عند الظاهرية فى شأن الثيِّب ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « والثيِّبَ أحق بنفسها من وليها » .

ورأى الجمهور أن الولى شرط للزواج أخذاً بحديث : « لا نكاح إلا بولى » غيره من الأحاديث ، والحكمة فى هذا أن يتم الزواج بتراضى الأطراف المعنية كلها ، وحتى لا تكون المرأة إذا تزوجت بغير إذن أهلها تحت رحمة الزوج وتسلطه حيث لم يكن لأهلها رأى فى زواجها .

وعلى كل حال إذا قضى قاض بصحة هذا الزواج فهو صحيح ولا يملك أحد نقضه كما قال ابن قدامه فى « المغنى » .

* *